المحاضرة الخامسة: مفهوم اليوتوبيا عند توماس مور Thomas More

المقدمة: الحديث عن المدينة الفاضلة والمثالية لم يتوقف نطاقه عند حدود الفلسفة العربية الإسلامية فقط، بل ظهرت بوادره أيضا بعد ذلك لدى عدد كبير من المفكرين الأوربيين، والذين بادروا لتقديم العديد من الإسهامات الهامة في هذا الإطار، كما هو عليه الحال بالنسبة للسير **توماس مور Thomas More**، والذي يعد أحد أبرز أعلام الفكر اليوتوبي ومؤسس خطابه في نسخته الحديثة، والذي سنقف عليه بشكل أكثر تفاصيل ضمن محاور هذه المحاضرة.

أولا. تعريف اليوتوبيا لغة وصطلاحا: تتركب لفظة يوتوبيا من كلمتين رئيسيتين جرى اشتقاقهما من اللغة اليونانية القديمة، وهما (OU) و(TOPOS)، واللتان تشيران في الانجليزية إلى المعنيين **(NO) و(Place)** على الترتيب. ليصبح بذلك معنى اللفظة عند إعادة جمع مكونيها **No Place**، والتي يحيلنا معناها عند ترجمته ونقله إلى اللغة العربية، إلى معنى "اللامكان" أو "ليس في مكان". ولكنه تعمد إسقاط حرف **(O)** من الكلمة الأولى فيها، وكتب الكلمة باللاتينية لتقرأ **UTOPIA**.

ويرجع الفضل الأكبر في النحت الاصطلاحي لكلمة يوتوبيا، ودخولها حيز الخدمة سنة 1516 إلى الفيلسوف الانجليزي **توماس مور**، والذي اختارها عنونا لكتابه، الذي أصبح بعد ذلك أشهر يوتوبيا في العصر الحديث.

أما في اللغة العربية، فتعددت الترجمات العربية والتي حاولت مقاربة معنى كلمة **UTOPIE**، على غرار كلمة مثالي أو حالم. إلا أنه يبقى أهمها على الإطلاق كلمة طوبي، والتي استخدمها الأستاذ **أحمد خليل** في ترجمته لكتاب **تييري باكو** الموسوم ب: **utopies et les utopistes**، والذي بات عنوانه فيما بعد: **الطوبيا والطوباويون**.

وقد أثار استخدام هذه اللفظة، نوع من النقاش والتباين بين منكرا لذلك وغير متحمس له، وأخر مدافعا عن مصداقية اللفظ وقدرته على ترجمة معنى اللفظ الأصلي، حيث جاء في قاموس: "**لسان العرب**" أن طوبي فعل من الطيب، وكان أصله طيبي، فقلبوا الياء إلى واو للضمة قبلها، وهي تعني شجرة في الجنة كما تعني أيضا اسم الجنة بالهندية. وقد ورد في الأثر عن **سعيد بن جبير**، أنه قال طوبى اسم الجنة بالحبشية، أما في الحديث الشريف فقد جاء قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم "**أن الاسلام يبدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء**"، ليصبح معنى طوبى هنا هو الجنة.

ويرى الدكتور **محمد علي الكبسي** في هذا الصدد، أن ما يورده "القاموس المحيط" و"المعجم الوسيط" خاصة الحديث عن الإسلام الذي يحمل معنى الجنة، يؤكد أن العلاقة بين مفهوم اليوتوبيا ومفهوم الطوبيا ليست متنافرة على الأقل، بل هناك تطابق من حيث الدلالة. فلئن عنت لفظة اليوتوبيا مدينة فاضلة عادلة سعيدة وغير موجودة على هذه الأرض، فإن هذه الصفات كلها تنطبق على أهل الجنة بصفة عامة، وهل توجد جنة دون أن تكون فاضلة.

هذا الشبه بين الطوبيا واليوتوبيا في إحدى معانيها على الأقل، كما سبقت الإشارة إليه حسب **محمد علي الكبسي**، هو ما يشفع باستعمال هذا المفهوم كما جاء في المعنى اليوناني، مادام أنه لا يجافي المعنى العربي، بل أنه يحمل دلالة شديدة القرب والشبه من الدلالة الإغريقية.

أما اصطلاحا، فيمكن القول بأن مفهوم الطوبي يفيد الدلالة على نوع أدبي أو لون من السياسة الموهومة، وعلى تحقق إكراهي لشكل تنظيمي اجتماعي يتجسد من خلاله مثال يعتقد أنه مثال جيد على الإطلاق. حيث تقوم الطوبيا في مواجهة القيم السائدة في المجتمع، وتمتاز بمطلقيتها التي يمكنها أن يقود اتباعها إلى أشد أنواع التعصب وعدم التسامح إزاء عالم فاسد وإزاء أولئك الذين يمكن اعتبارهم ممانعين لقيام نظام جديد.

وعرف استخدام هذا المصطلح فيما بعد نوع من التشويه والخلط، والذي يتجلى تحديدا في كثرة استخداماته وتعدد مدلولاته من شاكلة الاشتراكية الطوباوية، الأمر الذي دعا بالكثير من المعجميين الى المسارعة في تخليصه من أي تشويه مغالي أو عاهة تكوينية، كما هو الحال بالنسبة **لبيار لاروس** (**Pierre Larousse**) في قاموس القرن التاسع عشر الشامل (1870-1876) **Grand Dictionnaire du XIXe siécle**، والذي عرفها بأنها: ***" ... صورة من صور المثل الأعلى، وبتالي فهي تتمتع بكل خصائصه، ولفظ مثل أعلى مأخوذا بمعناه الأكثر عمومية، هو مرادف للفظ صوري أو خيالي، وينطبق بالتالي على سائر الأشياء التي لا وجود لها خارج الفكر الذي يتصورها حيث يتماهى المثل الأعلى في جزء منه مع الممكن"***

محاولات التوصل لصياغة تعريف مضبوط لمفهوم اليوتوبيا لم تتوقف عند هذا النطاق، حيث تعددت الاجتهادات بعد ذلك كتلك التي قام بها الدكتور: **نزار شقرون** والتي ذهب فيها إلى قول ما يلي: " ***يقوم الفكر الطوباوي على تصور خيالي للمجتمع دون مراعاة الشروط المادية والواقعية لتحقيق هذا التصور، وهو فكر مهتم بقضية النظام الاجتماعي وسبل توزيع الثروة واستهلاكها في ظل علاقات اجتماعية فاضلة بين البسطاء خارج المنافسة والنزاع والحروب. ولئن استطاع الفكر الطوباوي نقد المجتمع فإنه فشل في تقدير بديل واقعي لمشكلياته"*** .

ولأن جزء كبير من قصص اليوتوبيا وحكايتها، اقترنت في مساعيها بالبحث عن فضاءات وعوالم مثالية سميت بأسماء المدن، على غرار ما ذهب إليه كل من **القديس أوغستين** في كتابه: **مدينة الله**، ومدينة الشمس لكامبانيلا (**campnella**)...إلخ، فإن ذلك كان مبعث للمختصين في شؤون البحث العمراني وسوسيولوجيا

التحضر ليدلوا بدلوهم أيضا في هذا الموضوع، كما هو عليه الحال بالنسبة للباحثة الفرنسية **فرنسواز شوي Francoise Choay**، في كتابها الشهير والموسوم ب: **L' urbanisme utopies et réalités une anthologie**، حيث عرفتها بأنها: كل الأفكار السامية موضعيا كخيال مثالي. هذا الخيال المنشأ بطريقة حرة لديه إمكانية التأثير وإحداث التحول في النظام السوسيوتاريخي الموجود، إلى جانب الاقتراحات الحضرية اللاحقة من خلال منحى معين للتصرف وإعادة النظر في المجتمع.

وتتعدد مضامين الطوبيات وتختلف، فبعضها يتقرح مجتمع الوفرة، وبعضها الأخر يقترح مجتمع تقشف شديد، في حين يقترح ثالث مجتمع قديسين، وهناك من يقترح مجتمع أبطال. ويقوم الفكر الطوباوي على شعور أساسي بالنقص وعدم الرضا إزاء الظروف الراهنة للحياة الاجتماعية.

وهذا الشعور، يكون قاعدة لتحرك جماعي مشترك في سبيل إعادة التوازن والانسجام، بين ما يمكن اعتباره عدلا والحياة القائمة فعليا الآن.

ثانيا. ملامح الوضع السياسي والديني لعصر النهضة: أخذ الفكر اليوتوبي مع عصر النهضة يظهر اهتمام أكبر بالمشاكل الاجتماعية وتنظيم المجتمع، ومرجع ذلك ما شهده القرنين السادس والسابع عشر من يقظة علمية وأدبية كبيرة، إلى جانب انتشار الكساد الاقتصادي والفقر المدقع، وشيوع الإحساس بعدم الرضى بين طبقة العمال نظرا لما كانوا يلاقونه من تعسف وظلم وطرد من ديارهم ومناطق إقامتهم. بالإضافة إلى ما كانت تعانيه بلدان أوربا آنذاك من ظروف سياسية جعلتها أشبه بقطعة شطرنج في أيدي المتنافسين، وهي التي كانت تعيش نسقين من الحياة في أن واحد الأول ديني والأخر فكري عقلاني. وتذهب **ماريا لويزا برنيري** في شرحها لظروف هذه المرحلة، إلى التسليم بأن تأكيد فردية الإنسان وتطوير ملكاته النقدية وتوسيع نطاق المعرفة لديه التي عرفتها معطيات هذه المرحلة، عملت كلها على تدمير الروح الجماعية للعصور الوسطى وقضت على وحدة العالم المسيحي. بل أن عصر النهضة أدى إلى تكوين طبقة من المثقفين بالفصل بين العامل والتقني والحرفي والفنان وعامل البناء والمهندس، وبذلك ولدت ارستقراطية جديدة، لم تعتمد على الثروة والقوة بل على الذكاء والمعرفة، فأصبحت أوربا بذلك مقسمة إلى طبقات مثقفة وأخرى غير مثقفة.

هذا التقسيم عجل بتفسخ المجتمع، فلم تعد القوة الصاعدة للنبلاء والملوك تكبحها رقابة المجالس الشعبية مما أدى إلى حروب منهكة ومستمرة، وتفككت الاتحادات القديمة ولم يحل شيء محلها، وساءت ظروف الشعب بشكل متزايد حتى وصلت إلى ذلك الفقر الفظيع الذي وصفته بدقة يوتوبيا **مور** وأخرى غيرها. وهو ما جعل كل يوتوبيات عصر النهضة بمنزلة رد فعل للنزعة الفردية المتطرفة في هذا العصر، كما أنها كانت محاولة لخلق وحدة جديدة بين الأمم، كما سنقف عليه أكثر في التفاصيل اللاحقة.

ثالثا. ملابسات وحيثيات حفت بكتاب اليوتوبيا وكاتبه: قبل الغوص في تفاصيل **يوتوبيا مور**، لا بد من التوقف قليلا عند بعض الأحداث والتفاصيل التي أحاطت بنشأة هذا الكتاب وخروجه إلى العلن

1- من يكون السير: توماس مور (1478-1535)؟: يعد قائد سياسي إنجليزي، ومؤلف وعالم ومحامي ناجح، تلقى تعليمه في مدرسة **القديس أنتوني**، وألف كتبا عديدة أهمها **اليوتوبيا**. شغل العديد من المناصب السامية خلال حياته، حيث عين كنائب لعمدة مدينة **لندن**، كما شغل منصب سكرتير ومستشار الملك **هنري الثامن**، وأنتخب ناطقا باسم مجلس الشيوخ. وأصبح فيما بعد وزيرا للعدل، قبل أن يستقيل منه حينما لم يقبل طلاق الملك هنري الثامن، وهي الحادثة التي كلفته حياته حيث حبس وقطعت رأسه.

دخل المجال السياسي من بابه الواسع بداية من انضمامه إلى البرلمان سنة (1504)، لكن الملك هنري السابع أرغمه على التخلي عن الحياة العامة بعد معارضته له. وبعد وفاه الملك سنة 1509 قربه هنري الثامن منه وعينه مستشاره الشخصي لمدة طويلة، لكن معرضة توماس طلاق الملك من زوجته **كلترين** مخالفة للبابوية، ألبه عليه فسجنه سنة 1534 ثم شنقه يوم 07 جويلية 1535، وقد رقت الكنيسة لحال توماس بعد موته فعينته في رتبة قديس.

2- مصادر إلهام توماس مور: تعددت المصادر التي نهل منها **توماس مور**، والتي أثرت بشكل واضح في بلورة تفكيره وقناعاته التي صاغها لاحقا في طوباويته، وهي التي يمكن حصرها إجمالا حسب المهتمين بهذا الشأن، فيما يلي:

- الفلسفة اليونانية: وأكثر المؤثرات فيها وضوحا هي أعمال كل من: بلوتارك وأفلاطون، هذا الأخير الذي كان شديد الحماسة لأفكاره.
- الآباء المسيحيين واللاهوتيين المتأخرين من شاكلة القديسين: توماس الإكويني وسانت أوجستين الذين درسهم بجد واجتهاد قبل قيامه رحلته إلى الأراضي المنخفضة، لا سيما الأخير منهم والذي شكل كتابه: "مدينة الله" محور محاضرات عامة سبق وأن ألقاها مور، والذي يعتقد أنه أخذ عنه مفهوم العبودية باعبارها عقوبة قاسية ووسيلة للإصلاح وبديلا عن عقوبة الإعدام التي كان يعارضها بشدة.
- كما أعطى اكتشاف العالم الجديد دفعة جديدة للفكر اليوتوبي، ولكنها تبقى حسب بعض المهتمين بهذا اللون الأدبي غير أساسية، ذلك أن **مور** لو لم يطلع على تقارير رحلات **أميريجو فسبوتشي** لكان أن تخيل لنا مجتمع مثالي له شكل مختلف فقط، مثلما حدث مع المتأخرين الذين جاءوا من بعده، ك: **توماس كامبانيلا**، و**أندريا فالنتين** وآخرون كثيرون غيرهم.

3- مما يتكون كتاب اليوتوبيا؟: تتكون قصة اليوتوبيا لتوماس مور من جزئين، يقدم الجزء الأول منهما الحالة الاجتماعية والسياسية لانكلترا في شكل محادثة متقطعة السياق بين **بيار جيل** (**Pierre Gilles**)، **توماس مور** & **رفائيل هيتلودي** (**Raphael Hythlodée**) في بروج. أما الجزء الثاني فهو عبارة عن وصف تفصيلي لحياة الطوباويين اليومية وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ونظامهم السياسي. وهو بذلك يعد صورة معكوسة لسابقه الذي حاول فيه تشريح الوضع السيء الذي كان سائدا أنذاك، حيث يعرض فيه لما يمكن أن

تكون عليه الحكومة الصالحة، وبهذا المعنى فهو طوباوي، غير أن هذه الطوباوية لا تظهر إلا بالمقارنة مع الجزء الأول.

ويعتقد الكثير من الدارسين أنه كتب الجزء الثاني من الكتاب أولا، وذلك حين كان سفير في بلاد الأراضي المنخفضة، وأن صاحب فكرة كتابته والتي تعود إلى سنة 1509 هو صديقه **إراسموس**، أما الجزء الأول فقد كتبه لاحقا وبالظبط بعد عودته من **لندن**، حيث تولى **إراسموس** مسؤولية حمل الاثنين إلى المطبعة في أواسط شهر كانون الأول/ ديسمبر، حيث تلقى المؤلف نسخه في سنة 1517 ميلادي.

4- أين وجدت يوتوبيا مور؟: اختلف الشراح والدارسون لفكر توماس مور حول الإطار العام ليوتوبيا **مور**، وذهبوا في ذلك إلى أربع مسالك، أعتقد فيه الفريق الأول بأنها مستوحاة من تقرير "**أميريجو فيسبوتشي**" عن رحلاته التي نشرت عام 1507. وقد ساعد مور نفسه على ترجيح كفة هذا الرأي، لأن بطل يوتوبياه **هيثلوداي** البرتغالي الذي أخذ على عاتقه مهمة وصف دولة يوتوبيا، يزعم أنه واحد من أربعة وعشرون (24) رجلا تركهم **فيسبوتشي** وراءه في **كاب فرو Cape Frio** أثناء رحلته الرابعة.

أما الفريق الثاني، فيفترض أن جزيرة يوتوبيا اكتشفت في مكان ما بين البرازيل والهند. في حين يزعم فريق ثالث يتقدمهم: **ج.س. ريتشاردز G.C.R.ichards** في مقدمة ترجمته لكتاب توماس مور "يوتوبيا" إلى الإنجليزية الحديثة، أن مور قابل في **أنتوارب** بحارا أعطاه وصفا لليابان، ويبرز في أثناء ذلك أوجه الشبه القائمة بين موقع وشكل جزيرة مور الخيالية وبين موقع اليابان وشكلها، وكذلك أوجه الشبه القائمة بين المظهر الجسماني لليابانيين ونظيره عند سكان يوتوبيا. كما طرحت في السنوات الأخيرة نظرية جديدة ترجح أن يكون **مور** قد عرف حضارة **الأنكا** في **البيرو** قبل الغزو الإسباني واتخذها نموذجا لدولته المثالية.

رابعا. متضمنات الخطاب الطوباوي لتوماس مور: تمحورت تفاصيل الخطاب الطوباوي الذي نسجه توماس مور في كتابه **يوتوبيا**، حول جملة من المحاور والتي عكست جملة من الانشغالات والهموم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... إلخ، التي تعكر صفو حياة المجتمع الانجليزي، والذي حال تناولها كله وعدم إهمال أي جانب منها على نحو ما سيأتي بيانه معنا في التفصيل اللاحق.

1) الموقع الجغرافي والمساحة: تمتد جزيرة يوتوبيا مسافة مئتي (200) ميل، ولا تضيق عند ذلك كثيرا في معظم أجزائها بإستثناء قرب طرفيها، حيث يكون هذان الطرفان دائرة يبلغ طول قطرها خمسمائة ميل، وهو ما يجعلها تبدو كالهلال، حيث يفصل بين طرفيها مضيق عرضه إحدى عشر (11) ميلا، ثم يتسع المضيق بعد ذلك فيكون بحرا عريضا.

تضم هذه الجزيرة أربع وخمسون (54) مدينة كبيرة وجميلة، تتكلم جميعها بنفس اللغة ولها نفس التقاليد والعادات، وتسودها ذات القوانين والنظم، وهي جميعا متشابهة أيضا في نظامها، ومتشابهة أيضا في مظهرها بقدر

ما تسمح به طبيعة الأرض، ولا تبعد مدينة عن الأخرى أكثر من أربع وعشرين (24) ميلا، ولا يفصل إحداها عن الأخرى أيضا أكثر من مسيرة يوم واحد. عاصمته هي**أموروت*** والتي تعد نسخة محسنة من مدينة **لندن**.

هذه المدن محاطة بحزام من الأسوار العالية والسميكة، مزدانة بأبراج وأعمال عسكرية كثيرة، تجعل من المدينة قلعة حصينة: محاطة بخندق بلا ماء لكنه عميق وواسع، جعلته السياجات الشوكية غير قابلة للاستعمال، تحيط بها التحصينات من ثلاث (03) جهات، وفي الجهة الرابعة هناك النهر الذي يقوم مقام الخندق.

2) عدد السكان: يتكون عدد سكان كل مدينة من حوالي 100 ألف نسمة. فإذا ما زاد عدد السكان في الجزيرة كلها عن هذا الحد، فإنهم يختارون عددا من المواطنين من كل مدينة، ويقيمون لهم مستعمرة جديدة تخضع لقوانينهم، وذلك على جزء من أرض القارة المجاورة لهم، في مكان تكثر فيه لدى السكان الأصليين الأرض غير المأهولة وغير المزروعة. فإذا أراد السكان الأصليون أن يسكنوا معهم سمحوا لهم بالانضمام إليهم. وعندما يتم هذا الإتحاد، يندمج الفريقين معا تدريجيا وبسهولة، ويتبعان نفس طرق الحياة ونفس العادات بما فيها فائدة الشعبين. وباستخدام الأساليب التي التي يتبعونها في بلادهم يجعلون الأرض تدر ما يكفيهما جميعا.

وفي حالة ما إذا رفض هؤلاء السكان طاعة قوانين اليوتوبيين فإنهم يطردونهم من أرضهم، فإذا قاوموا شنوا عليهم الحرب، فهم يعتبرون أن أعدل مبرر للحرب هو أن يتمسك قوم بقطعة من الأرض لا يستغلونها بل يتركونها بورا ويمنعون غيرهم من استخدامها.

3) التنظيم الفضائي: ويعكس الاهتمام الشديد بإصلاح أحوال المدن، ويتجلى ذلك فيما يلي:

- نوعية المنازل: أبعد ما تكون على الضآلة والتواضع، حيث يسكن السكان في بيوت قوية لا تعدى الطوابق الثلاثة ومجهزة بمداخن ونوافذ خارجية، بغرض تمرير المزيد من الضوء والقليل من الريح. تقام بجانب بعضها البعض في صف طويل، يستمر طوال الشارع ويقابله صف أخر على الجانب المواجه. ويفصل بين واجهات المنازل المتقابلة شارع عرضه عشرون (20) قدما. وخلف المنازل وعلى طول الشارع حديقة فسيحة تحيط بالجوانب الخلفية للمباني من جميع الجهات. ولكل منزل بابان يفتحان تلقائيا بمجرد أن تلمسهم الأيدي، يؤدي أحدهما إلى الطريق والأخر إلى الحديقة. هذه المنازل يستبدلها اليوتوبيون كل عشر (10) سنوات عن طريق القرعة. والغرض من وراء ذلك التأكيد على أنه لا يوجد ما يعد ملكا خاصا في أي مكان.
- المساحات الخضراء: يبدي السكان اهتماما خاصا بالحدائق، فيزرعون فيها الكروم والفواكه والأعشاب والزهور ويعتنون بها لتزدهر، حيث "***لم أرى في حياتي شيئا اكثر إثمارا أو تنسيقا منها في أي مكان أخر***". ويزداد حماسهم لرعايتها ليس نتيجة لما يجدون في ذلك من متعة فقط، بل نتيجة أيضا للتنافس بين مجموعات منازل الشوارع المختلفة حول اجمل حديقة وأكثرها تنسيقا.

* مشتقة من اللفظة اليونانية Amauraton ومعناها "التي تعتم" وكان يقصد بها مدينة الضباب.

4) **التنظيم السياسي**: جزيرة يوتوبيا بأكملها هي عبارة عن اتحاد فيدرالي مكون من المدن والأرياف المحيطة بها، يقوم هذا النظام الفيدرالي على ما يلي:

نظام انتخاب الحكام: يقسم سكان كل مدينة لأغراض انتخابية وإدارية إلى أربعة (04) قطاعات، كما يقسم كل قطاع إلى مجموعات مكونة من ثلاثين (30) أسرة، وتنتخب كل ثلاثين أسرة سنويا حاكما لها تطلق عليه اسم **السيفوجرانت**. وكل عشرة سيفوجرانت بعائلاتهم يحكمهم **ترانيبور** ينتخب سنويا ولا يغير إلا لسبب معقول، والمجموع الكلي للسيفوجرانت الذين يبلغ عددهم مائتي (200) فرد يشكلون **مجلس شيوخ**. يعيين أمير المدينة من أربعة أشخاص سبق أن رشحهم الشعب، ويحتفظ الأمير بمنصبه مدى الحياة ما لم يشك في نيته أن يصبح طاغية، ويساعد الأمير مجلس أو هيئة مؤلفة من عشرين ترانيبور أو إثنين من السيقوجرانت، كما ينضم للمجلس اثنان (02) من الرؤساء يتغيرون يوميا.

وعملية اختيار الحكام هنا، تتم بناء على الثقة التي تمنحها إياهم الأسر التي تنتخبهم، أكثر مما يتم على أساس معرفتهم ومواهبهم العقلية، دون أن يعني ذلك تجاهل هذه الأخيرة في عملية التصويت، حيث أنه يتم اختيار السفراء والكهنة والرؤساء الأوائل أو الترايبور وأخيرا حاكم المدينة يكون دائما من جماعة الدارسين. أما على المستوى الفيدرالي، فيأتي سنويا من كل مدينة إلى العاصمة **أموروت** ثلاثة (03) شيوخ ذوي تجربة، لمناقشة الأمور المتصلة بالمصلحة العامة للبلاد.

والهدف من صياغة نظام الحكم بهذا الشكل، هو منع أي تأمر بين الحاكم والرؤساء الأوائل، أو أي نوع من الظلم أو الاستبداد بالشعب يؤدي بسهولة إلى تغيير نظام الدولة.

طريقة إدارة شؤون العامة: تجري المشاورات بين الحاكم والرؤساء الأوائل (**الترانيبور**) مرة كل يومين وأحيانا أكثر من ذلك إذا أقتضى الأمر، وهم يتشاورون مع الأمير بشأن أمور الدولة، فإذا نشأ خلاف بين فردين من أفراد الشعب وقلما يحدث ذلك فإنهم يسوونه دون إبطاء. ويعرض كل أمرا يعد مهما من أمور الدولة على مجلس الرؤساء الذين يتشاورون فيه بعد أن يعرض الأمر على جماعات الأسر، فيعرضه كل رئيس على مجموعته ثم يبلغون قرارهم إلى المجلس، ولا يمكن اعتماد أي أمر من شؤون الدولة ما لم يناقش في المجلس ثلاثة أيام قبل صدور القانون، أما مناقشة الأمور المتصلة بالمصلحة العامة خارج المجلس الشعب فيعد جريمة من الدرجة الأولى.

5) **التنظيم الاجتماعي**: يعكس جانب من فكر **توماس مور** ووجهة نظره لقضايا كل من: الأسرة، الزواج، العبودية والتماثل الاجتماعي بين سكان الجزيرة. والتي سنتبين تفصيلها فيما هو وراد أدناه.

حجم الأسر: يقدر عدد الأسر في كل مدينة بستة ألاف (6000) أسرة فيما عدا الأراضي المحيطة بها، على أن لا ينقص عدد البالغين في كل أسرة عن عشرة (10) أو يزيد عن ست عشرة (16) فرد. أما فيما يتعلق بالأطفال تحت السن المحددة فليس عناك عدد محدد بالطبع. ويمكن مراعاة هذا الحد بسهولة عن طريق نقل أولئك الذين يزيدون على العدد المحدد في العائلات الكبيرة إلى تلك التي تقل عنه.

الزواج: سن الزواج لدى المرأة في يوتوبيا **مور** لا يقل عن الثامنة عشر (**18**) أما بالنسبة للرجل فقد حدد باثنان وعشرون (**22**) سنة، فإذا أدين رجل وامرأة بعلاقة سرا قبل الزواج عوقب الإثنان أشد العقاب، وحظر عليهما حظرا نهائيا ما لم يعف الحاكم عن جرمهما. كما أن الأسرة التي يرتكب فيها هذا الخطأ يركب أهلها العار، لأنهما أهملا القيام بواجباتهما. وعامل القسوة في معاقبة هذا الخطأ مرده أنهم يعرفون مسبقا أنه ما لم يتوخون الحرص في منع الأشخاص من هذه المخالطة غير المقيدة فلن ترتبط إلا قلة برباط الزواج.

ويعد اليوتوبيين الشعب الوحيد في العالم حسب **مور** الذي يكتفي رجاله بزوجة واحدة، كما أن الزواج قلما يفصم لديهم إلا بالموت أو بسبب الخيانة الزوجية، أو ما لا يطاق من طباع منفرة. فإذا ما حدث ذلك لأحدهما صدر له الإذن من المجلس بأن يتزوج ثانية، أما الطرف الأخر فيقضي بقية العمر يحمل وصمة العار دون زواج، أما أن يترك الزوج زوجته دون رضاها ودون أن يكون لها في ذلك ذنب سوى أن مكروها أو علة ألمت بها، فذلك ما لا يرضون ويرون أنه من القسوة ان تهجر الشخص وهو أشد ما يكون حاجة إلى السلوى.

التماثل الاجتماعي وإلغاء الفروق الفردية: ويتبدى في نوعية الملابس التي يرتديها السكان، فأثناء العمل يرتدون لباسا بسيطا من الجلد يبقى سبع (07) سنوات، وعندما يخرجون إلى الخارج يضعون فوقه رداء يغطي ملابس العمل الخشنة إلى حد ما. وهذا الرداء من نفس اللون في الجزيرة كلها وهو لون الصوف الطبيعي. ونتيجة لذلك، فهم لا يحتاجون سوى إلى كمية أقل من الصوف مقارنة بما يحتاج إليه غيرهم، بل إن تكلفة ذلك تكون أقل بكثير. ومن ناحية أخرى، لما كانت الأقمشة القطنية تصنع بجهد أقل فهي تستخدم بقدر أكبر. وكل ما يهم في الأقمشة القطنية هو بياضها، أما الصوفية فما يهم هو نظافتها.

وفي الوقت الذي لا يكتفي فيه الأشخاص في البلاد الأخرى بأربعة أو خمسة أثواب صوفية مختلفة الألوان، ومثل هذا العدد من الأقمشة الحريرية، فإن في يوتوبيا **مور** يقنع الرجل برداء واحد يظل معه سنتين عادة. وبالطبع ليس هناك ما يدعو لأن يرغب في أكثر من ذلك، إذ لو كان لديه أكثر من واحد لما كان أكثر وقاية من البرد ولما بدا أحسن هنداما على الإطلاق.

العبودية: تشكل العبودية في تصور **مور** نظام قائم على قواعد وأسس معينة تختلف عن تلك التي كانت موجودة في بلاد اليونان القديمة. فأسرى الحر لا يصبحون عبيدا إلا إذا أسروا في معارك خاضوها ضد اليوتوبيين أنفسهم، كما لا يصبح أبناء العبيد عبيدا ولا أبناء أي شخص أخر كان عبدا عندما أحضر من بلد أجنبي، فالعبيد عندهم إما أولئك الذين حكم عليهم بأن يصبحوا عبيدا في بلادهم عقابا لهم على جرائم منكرة ارتكبوها، وإما أولئك المحكوم عليهم بالموت في مكان أخر عقابا على خطأ ما. وينتمي العدد الأكبر منهم إلى النوع الثاني، حيث يجلبون منهم الكثيرين بعد أن يشترونهم بأثمان بخسة وأحيانا بدون مقابل، وهم لا يلزمون هذا النوع من العبيد بالعمل الدائم فحسب، بل بالبقاء موثقين بالأغلال أيضا. أما العبيد من أبناء بلدهم فيعاملونهم بقسوة

أشد، لكون سلوكهم أكثر إثارة للأسى وأشد استحقاقا للعقوبة الصارمة كمثل رادع، وهم الذين ربوا تربية ممتازة في ظل حياة فاضلة ولم يتسنى منعهم من الإجرام.

وهناك أيضا نوع أخر من العبيد، وهم أولئك الذين يعملون بأحط أنواع الأعمال وأشقاها في بلد أخر، غير أنهم يفضلون أن يصبحوا عبيدا في اليوتوبيا، ويعامل هؤلاء الأفراد معاملة حسنة ويكادون أن يعاملوا بنفس الرقة تقريبا التي يعامل بها المواطنون فيما عدا أنهم يكلفون بقدر أكبر قليلا من العمل، نظرا لأنهم قد اعتادوا ذلك في بلادهم، فإذا اراد أحدهم الرحيل وذلك قلما يحدث حسبه فلا يحتجزونه على غير إرادته، ويتركونه يرحل خالي اليدين.

6) التنظيم الاقتصادي: يتسم التنظيم الاقتصادي لهذا المجتمع حسب تصور **توماس مور** بما يلي:

- المهن والوظائف: تعد الأرض المصدر الأساسي للثروة في اليوتوبيا، حيث يزرع سكانها رجالا ونساء دون استثناء أرضهن بمهارة ولا يسمحون بأن يبور شبر واحد منها، ومع ذلك فليس عندهم طبقة خاصة من الفلاحين أو المزارعين، فثمة تكامل أو بالأحرى اندماج كامل بين عمال المدينة وعمال الريف، لأن كل مواطن يقوم بالعملين معا. وتصبح الزراعة شكلا من أشكال الخدمة العسكرية التي يؤديها كل مواطن لمدة عامين (02).

والتحفظات التي يمكن أن تثار بشأن قصر هذه المدة، وعدم كفايتها لاكتساب اليوتوبيين خبرة كافية في مجال زراعة الأرض، يرد عليها مور بقوله: "... ***يتعلمونها جميعا في طفولتهم عن طريق التلقين النظري في المدرسة من ناحية، وعن طريق الرحلات الزراعية التي يقومون بها إلى المزارع القريبة من المدينة للترفيه من ناحية أخرى. وهنا لا يكتفون بالمشاهدة فقط، بل يشاركون بالعمل الفعلي كلما سنحت الفرصة للتدريب البدني***"

ويعود من كل أسرة سنويا عشرون (20) من أفرادها الذين قضوا سنتين في الريف، ويرسل من المدينة بدلا منهم عشرون (20) آخرون. والذين يقوم بتدريبهم أولئك الذين قضوا سنة هناك وأصبحوا أكثرة خبرة بشؤون الزراعة، وهؤلاء بدورهم يدربون غيرهم في السنوات الموالية. وبهذه الطريقة تتجنب البلاد أي خطر قد ينجم عن نقص في الكميات الكافية من المواد الغذائية التي تحتاجها سنويا.

ورغم أن مبدأ تغيير الزراع يعد هو القاعدة المتبعة، وذلك لا يجبر بعض الأفراد على غير إرادتهم في الاستمرار فترة أطول مما ينبغي في مزاولة هذا النوع الشاق من العمل، إلا أنه يسمح لأولئك الذين يميلون إلى الأعمال الزراعية ويجدون متعة في مزاولتها بالبقاء فيها عدة سنوات، فيقومون بفلاحة الأرض وتربية الماشية وقطع الأخشاب ونقلها إلى المدينة... إلخ..

- الأنشطة والمهن التكميلية: بالإضافة إلى الزراعة التي يشترك فيها الجميع، يباشر جميع السكان ممارسة حرف نافعة مع بعض الإستثناءات، حيث يتعلم كل منهم حرفة معينة خاصة به، ك: نسج الصوف، البناء، صناعة المعادن، التجارة... وفي العادة يتعلم الشخص صنعة أبيه التي يميل إليها ميلا طبيعيا، أما إذا استمالته

صناعة أخرى فإنه ينقل بالتبني إلى أسرة أخرى تزاول تلك الصناعة التي يميل إليها، ولا يحرص والده فقط بل السلطات المعنية أيضا على أن يوضع تحت إشراف رب أسرة وقور وشريف. وإذا رغب بعد ذلك أن يتعلم حرفة أخرى سمح له بذلك أيضا. وفي هذه الحالة له أن يمارس الحرفة التي يختارها، ما لم تكن المدينة بحاجة إلى واحدة منهما أكثر من الأخرى. ولا يشكل العمل في هذه الحالة عبئا ثقيلا عليهم، في ظل تخفيض ساعات العمل والسماح بفترة كافية لوقت الفراغ.

دوام العمل: يخصص اليوتيبون في برنامجهم الزمني اليوم ست (06) ساعات فقط للعمل، منها ثلاث ساعات قبل الظهر، يعقبها تناول وجبة الغذاء واستراحة لمدة ساعتين بعدها، ثم يعودون للعمل ثلاث ساعات أخرى قبل وجبة العشاء. ولما كانت الساعة الواحدة تحسب ابتداء من الظهر، فهم يخلدون إلى النوم حوالي الساعة (08) ويخصصون ثماني ساعات لذلك. ويبرر **توماس مور** لجوئه لتخفيض مقدار ساعات العمل إلى عاملين أساسيين وهما:

أ. الحرص على توزيع العمل بصورة أكثر عدلا ومساواة بين جميع سكان اليوتوبيا.

ب. تجنب تبديد طاقة العمل، ذلك أنه من عادة الشعوب الأخرى أن تتطلب عملية إقامة المباني أو ترميمها عمل عدد كبير من الأفراد بصفة مستمرة، لأن ما يبنيه الأب يؤدي به إهمال الابن المسرف تدريجيا إلى السقوط، ونتيجة لذلك نجد أنه ما كان يمكن أن يصان بقليل من التكاليف يضطر من خلفه إلى إعادة بنائه مما يكلفه الكثير، كما قد يأتي من بعده شخص أخر ويجده لا يتفق مع ذوقه فيهمله مما يؤدي إلى سرعة تساقطه، فيبني بيتا أخر في مكان أخر بتكاليف لا تقل عن التكاليف الأولى. غير أنه في بلاد اليوتوبيين حيث تدبر الأمور كما ينبغي وترعى المصلحة العامة رعاية منظمة، فإن إقامة بيت جديد في مكان جديد حدث نادر، ذلك أنهم لا يكتفون بترميم أي تلف بمجرد حدوثه، بل أيضا يحرصون على تلافي حدوث مثل هذا التلف. ونتيجة لذلك، نجد أن المنازل تظل قائمة لمدة طويلة جدا بأقل قدر من العمل، حيث يجد البناءون والنجارون أنفسهم أحيانا بدون عمل تقريبا، حتى إذا ما دعت الحاجة إلى إقامة بناء تم ذلك بسرعة.

لا نقود ولا أجور: تقسم كل مدينة إلى أربع (04) مناطق متساوية، وفي وسط كل منطقة سوق لجميع المنتجات، حيث تحضر كل أسرة منتجاتها إلى مبان معينة بالسوق، ويوضع كل نوع من السلع في مخازن مستقلة، ومن هنا يأخذ رب كل أسرة كل ما يحتاج إليه هو وأسرته ويحمله معه دون دفع مال أو بديل، بمعنى أن كل فرد يتسلم مقدار ما يحتاج إليه من متطلبات. وهنا كذلك يستبق كذلك **مور** مرة أخرى الاعتراضات الحتمية التي يمكن ان تثار ضد نظام كهذا، ويؤكد أن الشعور بعدم الأمان الاقتصادي هو الذي يدفع الناس إلى تكديس كميات من البضائع الصالحة للاستعمال بأكثر مما يحتاجون إليه بالفعل.

ولم يكتف اليوتوبيون بإلغاء النقود والتجارة في التعامل فيما بينهم، بل نجحوا أيضا في تجريد الذهب والفضة والأحجار الكريمة من سحرها وقوتها المفسدة، واخترعوا طريقة فذة تمكنهم من الحفاظ عليها واستعمالها

عند الحاجة في التجارة الخارجية، دون أن يضفوا عليها أي قيمة حتى أنهم نظروا إليها باحتقار، وذلك من خلال صناعة أحط الأواني للاستعمال منها لا في الأماكن العامة بل حتى في منازلهم الخاصة، كما أنهم يستعملونها أيضا لصناعة الأغلال والقيود الثقيلة التي يوثقون بها العبيد، أو يوشحون بها كل من يرتكب جرما أو يجلب العار على نفسه، حيث يعلقونها في أذنيه وحول رقبته ويضعون الخواتم الذهبية حول أصابعه.

7) **نظام التعليم**: الأوقات التي تتخلل ساعات العمل والنوم والطعام لا يقضيها الأشخاص في اللهو البطالة، ولكنهم يشغلون وقت فراغهم بنوع أخر من النشاط كل تبعا لميله الخاص، وتخصص هذه الأوقات عادة للنشاطات العقلية. فمن العادات المتبعة لديهم أن تلقى المحاضرات يوميا قبل بزوغ الشمس، ويكون الحضور إجباريا فقط لأولئك الذين اختيروا لتكريس أنفسهم للعلم. ويحتشد عدد كبير من جميع الفئات ذكورا وإناثا لسماع المحاضرات، حيث يستمع بعضهم لهذه وبعضهم الأخر لتلك، كل وما يتفق وطبيعته وميوله. أما إذا أراد شخص أن يقضي هذا الوقت في العمل، كما هو الحال بالنسبة لأولئك الذين لا ترقى أذهانهم إلى مستوى أي نوع من التدريبات العقلية العليا، فلا يحال بينه وبين ذلك، بل يمتدح بالفعل لأن في عمله فائدة للدولة.

8) **التنظيم القضائي**: ويقوم على ما يلي:

- عقوبة الإعدام: لا توقع عقوبة الإعدام في يوتوبيا **مور** إلا نادرا، ومبرر ذلك أسباب نفعية أكثر منها إنسانية أو أخلاقية. حيث تعاقب أسوأ الأخطاء عادة بالعبودية، لأنهم يرون أن هذه العقوبة ليست أقل رهبة للجرم، وهي أكثر فائدة للدولة من الإسراع بإعدام المجرمين والتخلص منهم مباشرة فعملهم أكثر فائدة من موتهم.
- فك الرابطة الزوجية: يعد الطلاق أمر مباح في حياة سكان الجزيرة لكن يتم التشديد فيه، فقد يحدث أن لا تتفق طباع الزوجين بدرجة كافية، في مقابل إيجاد كل منهما لشخصا أخر يأمل أن يعيش معه حياة أسعد، ولذلك يمكن لهما أن ينفصلا بموافقتهما ويدخلان في ارتباطين جديدين، لكن ذلك يبقى رهينة موافقة المجلس الذي لا يسمح لأي طلاق أن يتم قبل أن يبحث أعضاؤه وزوجاتهم الأمر بعناية، وحتى بعد ذلك فإنهم لا يرحبون بالموافقة على الطلاق لأنهم يعلمون أن عائقا سيقف في سبيل توثيق عرى الحب بين الزوج وزوجته، إذا كان هناك أمل في زواج جديد سهل.

خامسا. تقييم نظرية توماس مور: رغم أن **مور** كان على إدراك تام للمشكلات الاجتماعية والسياسية التي تتطلب حلا، ولكنه لم يكن مصلحا عمليا، وتصور الحل الذي قدمه كان منفصلا انفصالا كاملا عن الواقع. حيث كان الحل الذي أقترحه بمنزلة حلم هروبي، كما كان في نفس الوقت وسيلة لسخرية من المؤسسات والحكومات التي عاش في ظلها. أضف إلى ذلك أن الكثير من المنظرين حتى أولئك الذي عاصروه من شاكلة ذلك رفيقه **إرازموس**، قد انزعجوا من فكرة التنظيم الدقيق والصارم للمجتمع التي قدمها، والتي تجعلك تشتم منها رائحة الأديرة بقوة، وتجعل الحياة فيها مصطنعة. كما أعترض بنفس القوة على حرمان الإنسان من غرائزه وعواطفه الطبيعية

ليتحول إلى آلة عقلية. فرجال مور المثاليين غير إنسانيين بتاتا، لأنهم غير قادرين على الإحساس بأي مشاعر غير تلك التي تمليها عليهم قوانين معينة، أو لأنهم ممنوعون من ذلك.

المراجع المستخدمة في المحاضرة:

1) شريف الدين بن دوبه: اليوتوبيا: الدلالة والآفاق، في: **اليوتوبيا والفلسفة: الواقع اللامتحقق وسعادات التحقق**، إشراف وتحرير: أ.د. عامر عبد زيد الوائلي وآخرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2014.

2) ماريا لويزا برنيري: **المدينة الفاضلة عبر التاريخ**، ترجمة: د. عطيات أبو السعود، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب، الكويت، 1997.

3) محمد علي الكبسي: **اليوتوبيا والتراث**، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق، 2008.

4) خليل أحمد خليل: **المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع**، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1984.

5) تيري باكو: **الطوبيا والطوباويون**، تعريب: أ.د. خليل أحمد خليل، دار الفارابي، ط 01، بيروت، 2008.

6) نزار شقرون: **الحداثة العمرانية: من الطراز إلى التعبير الحر**، دار محمد علي للنشر، تونس، 2013.

7) عبد العزيز بن محمد خواجة: **علم الاجتماع المعاصر: من الجذور إلى الحرب العالمية الثانية**، دار نزهة الألباب، غرداية، 2007.

8)

9) Choay Francoise: **L' urbanisme utopies et réalités une anthologie**, Ed du Seuil, Paris, 1965.